بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اهدني وسددني

مدح وثناء لذي النعم والآلاء

الخطبة الأولى:

الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير، الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً، الحمد لله حمداً يليق بجلاله، وتعظيماً يناسب كبرياءه، أحمد من له الفضل، فالحمد له على الدوام.

الحمد للذي لا يُدرك أهل الحمد حمده، ولا يبلغ أهلُ الفضل فضله، لا إله إلا هو، لا يُدركُ الخَلْقُ شَأْوهُ، وَلا يَبلغُ الأنامُ كنهه، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، ولا ند له ولا شبيه، ولا مثيل له ولا شريك، فهو:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق فلك الحمد.

لك الحمد كله، ولك الشكر كله، وإليك يرجع الأمر كله، علانيته وسره، فأهل أنت أن تحمد، وأهل أنت أن تعبد، لا إله غيرك، لك الحمد حمدًا غير مودَّع ولا مستغنى عنه رَبُّنَا، لك الحمدُ ملءَ السموات والأرض، وملءَ ما شئت من شيء بعد، أهلُ الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، تم نُورُكَ فهديت فلك الحمد، وعظُمَ حلمك فغفرت فلك الحمد، وبَسطت يدك فَأعطيت فلك الحمد.

حمدتك ربي كلما لاح كوكبُ *** وما ناح قُمْرِيٌ على الغصن يندبُ

وشكرٌ جزيلاً والثناء مردودٌ *** لك الحمد ما امتدت إليكَ المطالبُ

وأصلي وأسلمُ على حبيب الرحمن، ونبيه المصطفى من بين الأنام، أعرفُ الخلق بالله، وأكثرهم لهو حمداً، وأوسعهم له شكراً، وأظهرهم له ثناء، وعلى آله وصحبه أجمعين، أهل المعرفة والتقوى، أما بعد:

فيا عباد الله: اتقوا الله حق تقواه، وكونوا له طائعين، ولأمره متبعين تكونوا من الناجين يوم الدين.

عباد الله: لا أحد ينكر فضل من له الفضل، ولا أحد يجرؤ على جحد من له البر والإحسان، بل الجحود في هذا الباب من أعظم النكران للجميلِ وصاحبِهِ، وللمعروف ومعطيهِ، ولا يقع في ذلك إلا من كان مخذولاً مرذولاً، ومكابراً جحوداً.

أيها المسلمون: ثبت في صحيح الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: « لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللهِ، فَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ ».

ففي هذا الحديث الشريف - عباد الله - تأصيل لما نُريد الحديثَ عنه في خطبتنا هذه، ألا وهو مدحٌ لذي النعم والآلاء، والثناءُ على المتفضل بالبر والإحسان.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث المغيرةَ بْنِ شعبة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللهَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الْجَنَّةَ ».

والمعنى أن الله من أجل محبته للحمد والثناء أثنى على نفسه ورغب عباده بالثناء عليه ووعدهم بالجنة ليحمدوه على ذلك ويثنوا عليه.

عباد الله: الله وحده هو من يستحق المدحَ والثناء، لما له من صفات الجمال والجلال، وحسن الأفعال والكمال، والتفرد بالخلق والرزق والتدبير والإنعام.

إن مدحَ الله والثناءَ عليه من أجلِّ العبادات التي يتقرب بها العبد لمولاه، فإذا كان الرب ﷻ يحب ذلك فما أجلَّ وأعظمَّ إتيانَ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال!.

قد كان رسول الله ﷺ كثيرَ الثناء والمدح لله ﷻ في سائر أحواله العامة والخاصة لعظم عبوديته لله، وشدةِ خشيتهِ له وتعلقهِ به.

فقد كان ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ» أخرجه البخاري(٥٩٥٨)، ومسلم(٧٦٩) من حديث عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما -.

وكان يفتتح خطبه ومواعظه بالحمد والثناء؛ وكان ﷺ إذا آوى إلى فراشه قال: « الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لاَ كَافِيَ لَهُ وَلاَ مُئْوِيَ » أخرجه مسلم في صحيحه(٢٧١٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

بل إن الثناء على الله ﷻ سببٌ لرفعةِ العبد وثناءِ الله عليه، فقد جاء من حديث أنس بن مالك ﷺ أن رجُلاً جاءَ فدخل الصفَّ وقَدْ حفزَهُ النَّفَسُ - أي ضغطه النفس لسرعته -، فقالَ: الْحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ؛ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَتَهُ قال: « أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ »، فَأَرَمَّ الْقَوْمُ - أي سكتوا - فَقَالَ: « أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْسًا »؛ فَقَالَ رَجُلٌ: جِئْتُ وَقَدْ حَفَزَنِي النَّفَسُ فَقُلْتُهَا، فَقَالَ ﷺ: « لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا » أخرجه الإمام مسلم في صحيحه(٦٠٠).

فأعظمُ المدحِ وأجملهُ ما كان لله وحده لا شريك له، لأنه مدح خالص لا مطمع فيه لشيء من الدنيا، ولأنه حق لا باطل فيه ولا غلو، ولأنه يُتخذ زلفى لرضوان الله ودار كرامته، وكلما عظُمَ يقينُ العبدِ ومعرفتُهُ بالله وتعظيمُهُ له، ومعرفتُهُ بحقوقهِ وشعورهِ بالتفريط والتقصير بشكره عَظُمَ مدحه لله، وكثر ثناؤه عليه.

عباد الله: حقيقة المدح الثناء على الله بذكر الصفات الجميلة والأفعال الحسنة، فيكون بذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى، والتمعن في معانيها التامة فكل اسم وصفة ثبتا في الكتاب والسنة شُرع للمسلم مدحهُ بها، والعملُ بمقتضاها.

ويكون أيضًا بذكر أفعاله الحسنة وعاداته الطيبة وجوده وكرمه على عباده، ولطفه وصبره وحِلْمه على كفرهم وأذاهم، وعدله مع أعدائه وفضله على أوليائه.

ويكون أيضا بالاشتغال بذكر الحمد والتسبيح والتمجيد والتهليل والمداومة على ذلك عند تجدد النعم ونزول النقم، وقد ورد في السنة الصحيحة فضل الحمد والثناء وعظمِ ثوابه .

ولا يستطع أحد من الخلق مهما كمل إيمانه وعظمت لله معرفته أن يحصي ويحيط بالثناء على الله، ويستوفي محامده لأن الله ﷻ كملت أوصافه فلا يحيط به الواصفون، ولا يُلمّ به العارفون، فهذا النبي ﷺ مع قربه من ربه ومعرفته له، إلا أنه يقول في سجوده: « لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » أخرجه مسلم(٤٨٦)، ومعنا هذا الثناء ما قاله الإمام مالك - إمامُ دار الهجرة، وعالمُ المدينة رحمه الله تعالى -: (وإن اجتهدتُ في الثناء عليكَ فلن أحصيَ نِعَمَكَ وَمِنَنَكَ وإِحْسَانَكَ)أ.هـ.

وقال أبو حامد الغزالي في الإحياء(١/ ١٠١):(ليس المراد أني عاجز عن التعبير عما أدركته بل معناه الاعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله)أ.هـ، وعلى هذا فيرجع المعنى إلى الثناء على الله بأتم الصفات وأكملها التي ارتضاها لنفسه واستأثر بها فهي لا تليق إلا بجلاله، وهذا اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء،

فكما أنه تعالى لا نهاية لسلطانه وعظمته فكذلك لا نهاية للثناء عليه لأنه تابع لسلطانه وعظمته فكذلك لا نهاية للثناء عليه.

عباد الله: لا أحدَ يستحق المدحَ الكاملَ، والثناءَ الخالصَ إلا الله، فهو كامل في أسمائه وصفاته، عليٌ في نفسه وذاته، عظيم في إعطائه؛ لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

مهما مدحه المادحون، وأثنى عليه المثنون يقفون على عتبة بابه عاجزين عن استجماع فضله وإحسانه، وتكرمه وامتنانه، فيكون لسان حالهم وواقع أمرهم: لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

ولعلمه سبحانه بعجز العباد عن عد فضائله، وترداد محاسنه كان هو من أثنى على نفسه العلية، ومدح ذاته الكريمة.

فأنزل كتابه الكريم ومدح نفسه فيه، وأثنى على ذاته في آياته، فقال عزَّ من قائلٍ حكيماً:﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤]

فما أجمل مَدْحَهُ لِنَفْسِهِ، وما أَعْظَمَ ثَنَاءَهُ على ذاته.

ولما جاء كفارُ قريشٍ إلى النبي ﷺ فذكر آلهتهم، فقالوا له: أنسب لنا ربك، فكان الجواب من الله والبيان والمدح من الجليل فقال عزَّ من قائلٍ عليماً:﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ أخرجه أحمد(٥/ ١٣٣)، والترمذي(٣٣٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي(٢٦٨٠).

فهذا جواب في غاية المدح والبيان فهو سبحانه أحد، فردٌ صمد، وهنا لم يقل الله ﷻ (واحد) وإنما قال:﴿ أَحَدٌ ﴾ لأن الواحد قد يقبل الثاني، لكن الأحد لا يقبل الثاني.

لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيءٌ يولدُ إلا سيموت، ولا شيءٌ يموت إلا سَيُوْرَث، وإن الله ﷻ لا يَموتُ ولا يُورث، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ فلا شبيه له في ذاته، ولا مقارب له في صفاته، ولا ند له ولا مضاد فكان مدحه لنفسه بقوله:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]، عينُ الحق والصواب، وغايةُ الوضوح والبيان.

عباد الله: إن الله خلق الكون فنظمه، وخلق الإنسان وقومه، وخلق النبات وجمله، وخلق الحيوان وهداه، وخلق الأرض فسواها، والجبال فثبتها وقواها، وأجرى السحاب، وأنزل الغيث، يعطي ويمنع، يرفع ويضع، خلق كُلَّ شيءٍ فأحكمه وأحسنه، أوجد الخلق فأبدعه، بديع السموات والأرض: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فإله هذه أفعاله وهذه صفاته لحري بنا بني الإنسان الثناءَ عليه ومدحهَ وإجلالهَ.

عباد الله: إن الله هو الذي يعلم السر والنجوى، ويعلم ما في الأرحام، ويعلم متى ينزل الغيث، ويعلم ماذا تكسب كل نفس غداً، وبأي أرض تموت، وعنده علم الساعة فعلمه كامل، وإحاطته شاملة، فيعلم ما كان، وما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان:٣٤].

إنّ الله – سبحانه – لا يخيب معه رجاء، ولا يَضِيعُ عنده سعي، ولا يَرُدُ عن بابه واقف، عِزُ كلِّ ذليل، وقوةُ كل ضعيف، و مَفْزعُ كلِ ملْهُوف، من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علمَ سره، ومن عاش فعليه رِزقُه، ومن مات فإليه مُنْقَلَبُه. لا إلـه إلا هو الحكيم الرحيم.

بَاري الْبَرَايَا مُنْشِىءُ الْخَلائِقِ	مُبْدِعُهُمْ بِلاَ مِثالٍ سَابِقِ
الأَوّلُ الْمُبدِي بِلاَ ابْتِداء	والآخِرُ الْبَاقِي بِلاَ انْتِهاء
الأَحَدُ الفَرْدُ الْقَدِيرُ الأَزَلِيّ	الصَّمَدُ الْبَرُّ الْمُهَيْمِنُ العَلِيّ
عُلُوَّ قَهرٍ وَعُلُوَّ الشَّانِ	جَلَّ عَنِ الأَضْدَادِ وَالأَعْوَانِ
كَذَا لَهُ الْعُلُوُّ والفَوْقِيَّهْ	عَلَى عِبَادِهِ بِلاَ كَيْفِيَّهْ
وَمَعَ ذَا مُطَّلِعٌ إِلَيْهِمُ	بعلْمِهِ مُهَيْمنٌ عَلَيْهِمُ
فَإِنَّهُ الْعليُّ فِي دُنُوِّهِ	وَهُوَ الْقَرِيبُ جَلَّ فِي عُلُوِّهِ
حَيٌّ وَقَيُومٌ فَلاَ يَنَامُ	وَجَلَّ أَنْ يُشْبِهُهُ الأَنَامُ
لاَ تَبْلُغُ الأَوْهَامُ كُنْهَ ذَاتِهِ	وَلاَ يُكَيِّفُ الْحِجَا صِفَاتِهِ
باقٍ فَلاَ يَفْنَي وَلاَ يَبِيدُ	وَلاَ يَكُونُ غَيْرَ مَا يُرِيدُ

مُنفَرِدٌ بِالْخَلْقِ وَالإِرَادَهْ	وَحَاكِمٌ جَلَّ بِمَا أَرَادَهْ
وهُوَ الَّذِي يَرَى دَبِيبَ الذَرِّ	في الظُّلُمَاتِ فَوْقَ صُمِّ الصَّخْرِ
وَسَامِعٌ لِلْجَهْرِ وَالإخفاتِ	بِسَمْعِهِ الْوَاسِعِ لِلأَصْوَاتِ
وَعِلْمُهُ بِمَا بَدَا وَمَا خَفِي	أَحَاطَ عِلْما بِالْجَلِيِّ وَالْخَفِي

سبحان من لا يموت وغيره يموت، سبحان من تكفل بالقوت، سبحان من صوّر الأجنة، سبحان من له المنة، سبحان من وهب النور في الأبصار، وسكب الضياء في النَّهار، وقصَّر بالموت الأعمار، وأفنى بالهلاك الديار، جلَّ في علاه، تقدس عن الأشباه، لا إله إلا إياه، لا نعبد سواه، غالب فلا يقهر، وشاء فلا يجبر، أغنى وأقنى، وأضحك وأبكى، ظهرت آياته، بهرت بيناته، حسنت صفاته، تباركت ذاته، لا إله إلا الله عدد ما خطت الأقلام، ولا إله إلا الله كلما سجع الحمام، وهطل الغمام، ولا إله إلا الله كلما برق الصباح، وهبت الرياح، وكلما تعاقبت الأتراح والأفراح، لا إله إلا الله كلما ازدحمت الأنفاس، و حل السرور والإيناس، وانتقل الضر والبأس، وزال القنوط واليأس.

لا إله إلا الله ترضيه، لا إله إلا الله بها نلاقيه، ولا إله إلا الله تملأ الكون وما فيه، ولا إله إلا الله كلما دجى الليل، وكلما انكشف الهول والويل، وكلما انعقد السحاب وجرى السيل، ولا إله إلا الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، يُبدئ ويعيد، ذو العرش المجيد، والبطش الشديد.

لا إله إلا الله كلما ترعرع ورد وأزهر، وكلما لمع بارق وأمطر، وكلما تنفس صبح وأسفر.

لا إله إلا الله كلما زجرت الرعود، وخفقت البنود، وجرى الماء في العود، لا إله إلا هو يحيي ويميت، ويعز ويذل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [القصص:٨٨].

بارك الله لي ولكم بالقرآن العظيم، ونفعني وأيّا كم بما فيه من الآيات والذكرِ الحكيم، أقول ما سمعتم وله وعيتم، وأستغفر الله العظيم لي ولكم من كل ذنب وخطيئة، فاستغفروه وتوبوا إليه إن ربي لغفور رحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الأول والآخر، والظاهر والباطن، المتفضل بكمال الجمال والجلال، المتعالي عن الوصف والمثال، سبحانه جل و علا من رب كريم رحمن.

والحمد لله على خير من أثنى على ربه، وتقرب إلى لطفه، معدن الخير والكمال، ومثال الصدق والجمال، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فيا عباد الله: الثناء من قبل العبد لله تعالى يكون على معان هي: المدح، والشكر، والحمد.

وبين هذه الألفاظ عموم وخصوص، فالحمد هو المديح المطلق لله ﷻ باللسان، سواءً كان المدحُ أو الثناء جزاء نعمة من الله للعبد، أو ابتداءٌ من غير ارتباطه بنعمة محددة.

أما الشكر: فهو مرتبط دائماً بنعم الله على العبد، كما أن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، من حيث امتثاله لأوامر الله تعالى فهو أعم من الحمد.

عباد الله: الثناء يكون بقدر عِظمِ مكانة الرب في قلب العبد، ومدى معرفته بجلاله وكماله، ومدى حياة القلب بجمال الله تعالى، وأسمائه وصفاته.

لذا يبرز هنا أمر مهم للغاية وهو: على قدر معرفة العبد بربه وما يتصف به من صفات الجمال والجلال، تخرج تلك المعاني القلبية، إلى ألفاظ مبنية على المدح والثناء لله العظيم المتعال.

فكلما كان العبد لله أعرف، كان له مثنياً، ومنه أخوف.

لا غرو أن نجد النبي ﷺ يقول في الحديث المتفق عليه:« إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » أخرجه البخاري(٢٥٨٥)، ومسلم(٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وهذا الإحصاء لأسماء الله تعالى ليس المراد به الحفظ اللساني والقلبي عن ظهر غيب، دون التمعن والتدبر في معاني هذه الأسماء، بل دون التحرك بها في واقع الحياة، وصناعة الأمور، فكل اسم لله تعالى له معنى، ينبغي للعبد أن يتحقق به في قلبه حتى يتشربه، فيكون منه التأثر بدرجات، فيكون ثمة الحمد، ويكون الشكر، ويكون أبرزها الثناء على ذي الجلال والكمال.

فكما أن معاني أسماء الله وصفاته لها أثر في كيفية المدح وألفاظه، فإن غزارة المعاني القلبية في قلب العبد لها أثرها الكبير أيضاً، من حب وخوف ورجاء وتوكل، ونحوِ ذلك، فمن كانت هذه المعاني في نفسه باهتة وغير متفاعل معها، أنَّا له بمدح الله الجليل، وتمجيد الأحد الحليم، وهو فارغ المضمون.

ومهما يوفق العبد لأبواب الثناء على الله تعالى، لا يقدر على إيفاء الرب الكريم حقه من المدح وعبارات ومعاني الثناء، للعجز عن إدراك كنه الله تعالى، فلاَ نُحْصِـي ثَنَاءً عَلَيْه، هو كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِه.

أيها المصدقون: في يوم القيامة عند الكرب، وعظيم الهول، وطول الوقوف، واحتياج الناس إلى الشفاعة، يأتي الآن مقام التمجيد والثناء، والمدح والحمد فيقوم النبي ﷺ فينطرح ويسجد لله تعالى يقول ﷺ:« فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ» أخرجه البخاري(٣١٦٢)، ومسلم(١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، فكون المقام صعب وموقف كرب، وموقف شفاعة يكون الإلهام للثناء الذي لم يعطه أحد من البشر، فيكون ثمة قبول لشفاعة الرسول الكريم – عليه الصلاة والسلام – فينا.

وخير من يُدرك الألفاظ ويعطيها قيمتها هو نبينا وحبيبنا ﷺ، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: أن النبي ﷺ مرَّ بأعرابي وهو يدعو في صلاته وهو يقول: يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا تغيره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييلَ البحار، وعددَ الأمطار، وعددَ ورق الأشجار، وعددَ ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، ولا تواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرض أرضاً، ولا بحر ما في قعره، ولا جبل ما في وعره، اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه.

فوكّل النبي ﷺ بالأعرابي رجلاً فقال:« إِذَا صَلَّى فَأْتِنِي بِهِ»، فلما صلى أتاه، وقد كان أُهدي للنبي ﷺ ذَهباً من بعض المعادن، فلما أتاه الأعرابي وهب له الذهب وقال:« ممن أنت يا أعرابي؟» قال: من بني عامر بن صعصعة، قال:« هل تدري لم وهبت لك الذهب؟»، قال: للرحم بيننا وبينك، قال ﷺ:« إن للرحم حقاً، ولكن وهبت لك الذهبَ بحسن ثنائك على الله تعالى» أخرجه الطبراني في الأوسط(٩/ ١٧٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(١٠/ ٢٤٢):(ورجاله رجال الصحيح)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة(٤٦١٣).

عباد الله: كيف يكون الثناء على الله تعالى؟

يكون الثناء على الله تعالى بما يلي:

أولاً: التمعنُ والتأملُ الدائمِ في أسماء الله وصفاته، مع حِفْظِها، والعيش معها.

ثانياً: حفظ أعذب الكلام، وأجوده اللائق بالممدوح سبحانه وتعالى.

ثالثًا: اغتنام الأوقات الفاضلة للثناء على الله تعالى، ومن تلك الأوقات الفاضلة: الصلاة التي هي من أولها إلى آخرها ثناء على الله ﷻ، فمن دعاء الاستفتاح الذي هو تنزيهٌ وتحميدٌ وتمجيدٌ وثناء، إلى الفاتحة التي هي سورة الحمد والثناء، إلى الركوع الذي فيه التسبيح والتعظيم والإجلال، إلى ما بعد الركوع الذي فيه الثناءُ لله، والحمد الكثير الطيب كما يحبُ ربُنَا الطيب، إلى السجود الذي فيه التسبيح للعلي الأعلى، إلى التشهد الذي فيه التحيات التامات الكاملات لله تعالى، ثم في آخر الصلاة يتخير العبد ما شاء من الثناء فقد ثبت في صحيح الإمام البخاري عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال كُنَّا نَقُولُ فِي الصَّلاَةِ: السَّلاَمُ عَلَى اللهِ، السَّلاَمُ عَلَى فُلاَنٍ. فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ:« إِنَّ اللهَّ هُوَ السَّلاَمُ، فَإِذَا قَعَدَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلاَةِ فَلْيَقُلِ: التَّحِيَّاتُ للهِ إِلَى قَوْلِهِ الصَّالِحِينَ، ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الثَّنَاءِ مَا شَاءَ ».

أيضاً: ومن تلك الأوقات الفاضلة عقب الصلاة فقد ثبت عنه ﷺ أنه إذا سلم من صلاته أستغفر ثلاثاً ثم يقول:« اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ، وَمِنْكَ السَّلاَمُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ » أخرجه مسلم(٥٩١) من حديث ثوبان ﷺ فهذا ثناء على الله تعالى بعد صلاة كلها ثناء، ثم يتلو هذا الدعاء التهليل والتحميد والتسبيح والتكبير الذي هو ثناء.

رابعاً: تقديم الثناء على الله تعالى قبل الدعاء، قال عبدالله بن مسعود ﷺ كنت أصلي والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر معه فلمَّا جلستُ بدأتُ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ ثُمَّ الصَّلاَةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ دَعَوْتُ لِنَفْسِي، فقالَ النبي ﷺ:« سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ »أخرجه أحمد(١/ ٣٨)، والترمذي(٥٩٣)، وقال الألباني في صفة صلاة النبي ﷺ(٣/ ٩٩٣):(حديث حسن صحيح).

وقال ابن مسعود ﷺ:(إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَسْأَلَ، فَلْيَبْدَأْ بِالْمِدْحَةِ، وَالثَّنَاءِ عَلَى اللهَّ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ لِيَسْأَلْ بَعْدُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يَنْجَحِ) أخرجه الطبراني في الكبير(٨/ ٦٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٠٤).

فعندما يوفق العبد للثناء على الله تعالى، ويعيش بمعاني أسمائه وصفاته، تُزرع في قلبه محبة الله، والخوفِ منه، وكثرةِ العمل له، واستجابةِ الله لندائه ودعائه، وقد يفتح الله له أبواب فضله وجوده.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في مدارج السالكين(١/ ٤٢٠):(وهو سبحانه يَدْعُو عباده إلى أن يعرفُوْهُ بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، وهو سبحانه يُحب موجبَ أسمائه وصفاته فهو: عليم يحب كل عليم، جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عفو يحب العفو وأهله، حيي يحب الحياء وأهله، بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحِلم)

فلكَ الحمدُ يا مستوجبَ الحمدِ دائماً	على كل حالٍ حمدَ فانٍ لدائمِ
وسبحانكَ اللهمَّ تسبيحَ شاكرٍ	لمعروفكَ المعروفِ يا ذا المراحمِ
فكم لكَ منْ سترٍ على كلِّ خاطيءٍ	وكمْ لكَ منْ برٍ على كلِّ ظالمِ
وجودُكَ موجودٌ وفضلكَ فائضٌ	وأنتَ الذي تُرجى لكشفِ العظائمِ
وبَابُكَ مفتوحٌ لكلِّ مؤمِّلٍ	وبرُكَ ممنوحٌ لكلِّ مُصارمِ
فيا فالقَ الإصباحِ والحبِّ والنوى	ويا قاسمَ الأرزاقِ بينَ العوالمِ
و يا كافلَ الحيتانِ في لجِّ بحرها	ويا مؤنساً في الأفقِ وحشَ البهائمِ
ويا محصيَ الأوراقِ والنبتِ والحصى	ورملَ الفلاَ عدًا، وقطرَ الغمائمِ
إليكَ توسلنا بكَ اغفرْ ذنوبنا	وخففْ عنِ العاصينَ ثِقلَ المظالمِ

ألا وصلوا - عباد الله - على خير البرية أجمعين، ورسولِ رب العالمين، نبي الهدى والرسول المجتبى، كما أمركم بذلك المولى - جل وعلا - بقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل وسلم على نبينا محمد، وعلى آله الأطهار وصحابته الأماجد الأخيار، المهاجرين منهم والأنصار، وارض اللهم عن الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن سائر العشرة المبشرين بالجنة، والصحابة أجمعين.

اللهم حبب إلينا الأيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفرَ والفسوق والعصيان واجعلنا برحمتك من الراشدين.

اللهم اهدنا للحق وثبتنا عليه، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء، ومن درك الشقاء، ومن سوء القضاء، ومن شماتة الأعداء.

اللهم أحفظنا بالإسلام قائمين وقاعدين وراقدين، ولا تشمت بنا أعداءً ولا حاقدين، واجعلنا من أوليائك الصادقين.

اللهم أعز الإسلام وانصر المسلمين، وأذل الشرك والمشركين، ودمر أعداءك أعداء الدين، واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً وسائر بلاد المسلمين.

اللهم يا رب العالمين أحفظنَا وبلادنَا وبلادَ المسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم جنبنا الزلازل والمحن، والآفات والنقم.

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في كل مكان، اللهم ثبت أقدامهم، ووحد صفوفهم، وسدد رميهم، وأحفظ قادتهم، وكن لهم مؤيداً ونصيراً، ومعيناً وظهيراً.

اللهم عليك بالذين يحاربون دينك وأولياءك من اليهود ومن هاودهم، والنصارى ومن ناصرهم، والشيوعين ومن شايعهم، والمشركين ومن شاركهم، اللهم عليك بالرافضة المجوسية، ودهاقنة العلمانية اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.

اللهم اجعل أمرهم في سفال، وسعيهم في وبال، اللهم لا ترفع لهم راية، ولا تحقق لهم غاية، واجعلهم لمن خلفهم عبرة وآية.

اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً يُعز فيه أهل الطاعة، ويذل فيه أهل المعصية، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر يا سميع الدعاء.

عباد الله: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون، فاذكروا الله العظيم الجليل يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون، وصلى الله وسلم على نبينا محمد ﷺ.

وكتبها الفقير
إلى عفو سيده ومولاه
ظَافِرُ بْنُ حَسَنْ آلَ جَبْعَان